الحلم بالعدل في رواية
(رحلة ابن فطومة) لنجيب محفوظ

د. حسن البنداري

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي، بكلية البنات- جامعة عين شمس

الحلم بالعدل في رواية:
(رحلة ابن فطومة) لنجيب محفوظ

د. حسن البنداري(*)

عنى نجيب محفوظ في قصصه وبعض رواياته "بإزاحة" الظلم الذي تتعرض له "الشخصية الفنية"؛ لإحلال "العدل" وإقراره في بيئة سادها الظلم وغلب عليها الإحساس بالقهر. فليس من المقبول أن يظل المرء خاضعاً لعبء الظلم بغير مجابهته أو رفضه سراً أو جهراً. فكيف تستقيم الحياة بينما تنحني الرؤوس لظالم متعسف دون "تصرف احتجاجي" أو "دعوة" مباشرة تهدف إلى تبصير النفوس، تدعو إليه شخصية ملائمة قادرة على التنفيذ، أو تدعو إليه شخصية تتعرض لمتاعب جمّة للكشف عن الظلم وتحلم بالعدل، وتقدم خبرتها للأجيال. كما نرى في رواية (رحلة ابن فطومة) [1]".

فبطلها الشاب "قنديل العنابي" يعانى من إحباط شديد نتيجة معرفته الأكيدة بالأحوال المتردية في وطنه، وأغلب سكانه يعيشون في فقر وجهل بسبب غياب "العدالة، وتسلط الظلم" عليهم وقهر إرادتهم وقد استند إلى ثقافة علمية وأدبية استقاها من بيئته ومن معلمه الشيخ – في القيام برحلة إلى أوطان أخرى؛ ليعود بخبرة تفيد وطنه. فقد رأى كثيراً العنفَ والقسوة والقتل يصدر عن الطبقة الحاكمة دون رادع ديني أو أخلاقي، فكم رأى "سيف الجلاد وهو يضرب الأعناق، وكل فعل جميل أو قبيح يستهل باسم الله الرحمن الرحيم[2]"، ودائماً ما يرى الطرقات "تزدحم بالفقراء والجهلاء". وقد أرجع معلمه الشيخ مغاغة الجبيلي ذلك إلى أن "الإسلام اليوم قابع في الجوامع لا يتعداها إلى الخارج[3]"؛ ومن ثم جاء تعليق قنديل مناسباً حين قال يعقب على قول شيخه ومعلمه: "إذن إبليس هو الذي يهيمن علينا لا الوحي[4]". وقد اقترح الشيخ على تلميذه أن يرتحل إلى ديار غير ديار المسلمين؛ "فجميعها متضاربة في الأحوال والمشارب والطقوس، بعيدة كلها عن روح الإسلام الحقيقي". ولذلك استجاب إلى اقتراحه بأن الفائدة لن تتحقق إلا بمشاهدة بلدان أخرى. ذلك أن "الجديد"

(*) أستاذ البلاغة والنقد الأدبي، بكلية البنات– جامعة عين شمس.

(1) مكتبة مصر ، ط (1)، 1982.

(2) السابق: ص5.

(3) السابق: ص8.

(4) السابق: ص9.

الذي يسعى إليه سيقف عليه في ديار جديدة وغريبة في الصحراء الجنوبية. وهي ديار "المشرق، والحيرة، والحلبة، والأمان، والغروب ". وهى على كل حال "ديار وثنية" لا يجد فيها الغريب أو في الطريق إليها "إلا الأمن لحاجتها الملحّة إلى التجارة والسياحة[1]". ولكن الرحلة المنشودة التي يجب أن يتذكرها دائمًا ، ليقوم بها في رأي الشيخ المعلم هي الرحلة إلى "دار الجبل" التي تناولها الشيخ مغاغة بهذا الوصف:

- "نسمع عنها الكثير، كأنها معجزة البلاد، كأنها الكمال الذي ليس بعده كمال[2]".
- ودار الجبل إلى جانب هذا الوصف الموجز لم يجد الشيخ أي إنسان - طوال حياته المديدة - زارها أو كتب أحد عنها كتاباً أو مخطوطاً؛ ولذلك صاح قنديل متعجبًا:
- إنها سر مغلق.

ويبدو أن هذا السر المغلق قد استثار الشاب الطموح؛ ففكر في القيام بالرحلة. يقول: "وكأي سر مغلق شدني إلى حافته، وغاص في ظلماته، وضرم النار في خيالي، وكلما ساءني قول أو فعل رفّتْ روحي حول دار الجبل[3].

وقد عمد الكاتب إلى تعزيز فكرة الشاب في الرحيل – بواقعة ظلم فادح تعلق باختياره فتاة رغب في الزواج منها ... فتاة فقيرة ترتدى الجلباب وخمار الرأس، تقود والدها الضرير رأى في وجهها جمالاً أسره في لحظة عابرة أثناء سيرهما؛ فحين أوشكت على السقوط بسبب التعثر "تحرك رأسها حركة نافرة أطاحت بطرف الخمار عن وجهها فانطبع بتمامه على بصري غارساً حسنه في أركان وجداني[4]". وكانت هذه اللحظة كافية لتتمكن منه الفتاة "تلقيت في لحظة عابرة رسالة طويلة مشحونة بكافة الرموز التي تقرر مصير قلب[5]".

وقد تجسد الظلم في "حرمانه" من حليمة الطنطاوي التي اختارها قلبه، ووافقت عليها والدته ومعلمه الشيخ، ذلك أن "الحاجب الثالث" للوالي الحاكم

---

(1) السابق: ص9.

(2) السابق: ص10.

(3) السابق: ص13.

(4) السابق: ص13.

(5) السابق: ص13.

قرر أن تكون حليمة زوجته الرابعة، وقد امتثل لقرار حاجب الوالي الجميعُ؛ فلا قِبَل لأحد برفض رغبته، وهذا ما جعل "قنديل" يقول: "ألا لعنه الله على هذه الدار الزائفة[1]"، ويعلن قرار الرحيل بقوله لمعلمه الشيخ :

- سأزور المشرق، والحيرة، والحلبة، ولكني لن أتوقف كما توقفت بسبب الحرب الأهلية التي قامت في الأمان، سأزور الأمان والغروب ودار الجبل[2].

بدأت رحلته بزيارة "دار المشرق" ضمن قافلة تجارية ولكن هدفه ليس دار المشرق، إنما دار الجبل، فقد قال "لفام" صاحب فندق الغرباء:

- دار الجبل هي الهدف الأخير من رحلتي.

وقد سأله عنها بقوله:

- ماذا تعرف عنها يا سيد فام.

فأجاب باسماً :

- لا شيء إلا ما توصف به أحياناً، كأنما هي معجزة الدهر، ومع ذلك لم أصادف رجلاً واحداً ممن زاروها[3].

ويعلق الشاب الطموح بقوله لنفسه: "وقال لي صوت باطني بأنني سأكون أول ابن لآدم يتاح له أن يطوف بدار الجبل، ثم يعلن سرها للعالمين"[4].

ولم يكن تحمله لغرابة نظام دار المشرق والدور الأخرى إلا لتكون هذه النظم مصدر معلومات عن أفكار ومعتقدات سياسية ودينية وتقاليد اجتماعية وقيم خلقية - يقوم بتسجيلها؛ حتى يتمكن من الموازنة بينها وبين ما يجرى في وطنه من معتقدات وتقاليد وقيم تتعلق بالنواحي السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية ... ففي حواره مع الكاهن الأكبر جاءت موازنة بين ما يراه الكاهن ويعتقده وما يراه هو ويؤمن به ... ويسجل ويروى قنديل الحوار وهما بصدد

---

(1) السابق : ص18.

(2) السابق : ص19.

(3) السابق: ص37.

(4) السابق: ص37.

الحديث عن اضطلاع السادة بمهمة حماية الدولة عند وقوع الخطر الخارجي، وضد التهديد الداخلي. يقول الكاهن:

- " .. السادة هم الذين يعدون أنفسهم للدفاع. وهم أيضاً الذين يتصدون لأي عدوان في الداخل؛ فيهيئون للعبيد حياة آمنة. هل تستكثر عليهم بعد ذلك أن يملكوا كل شيء لينفقوا على السلاح والجنود المرتزقة؟!

فقلت متحدياً :

- يوجد نظام أفضل يوفر للناس كافة حقوقهم ويعدهم للدفاع عن دارهم عند الحاجة!

فمط الرجل شفتيه مضمومتين، وقال بحسم :

- الكائنات في دارنا أنواع: نبات، وحيوان، وعبيد، وسادة، ولكل نوع أصل يرجع إليه غير أصول الأنواع الأخرى ...

فقلت وأنا في غاية الاستياء:

- الناس عندنا أخوة من أب وأم واحدة. لا فرق في ذلك بين الحاكم وأقل الخلق شأناً ..

فلوح بيده استهانة، وقال :

- لست أول مسلم أحادثه. إني أعرف عنكم أشياء وأشياء. ما قلت هو حقاً شعاركم، ولكن هل يوجد لتلك الأخوة المزعومة أثر في المعاملة بين الناس؟!

فقلت بحرارة، وقد تلقيت طعنة نجلاء:

- إنه ليس شعاراً ولكنه دين ..

فقال ساخراً:

- ديننا لا يدعى ما لا يستطيع تطبيقه.

فقلت وقد شدتني الصراحة إلى أعماقها:

- إنك رجل حيكم، إني أعجب كيف تعبد القمر وتتصور إنه إله!

فقال بجدية وحدة لأول مرة :

- إننا نراه ونفهم لغته، فهل ترون إلهكم؟

- إنه فوق العقل والحواس.

فقال باسماً:

- إذن فهو لا شيء!

كدت ألطمه، ولكن كظمت حنقي واستغفرت ربى. وقلت:

- إني أسال الله لك الهداية.

فقال باسماً :

- وإني أسال إلهي لك الهداية[1].

ففي ضوء هذه الجمل الحوارية أمكن لقنديل العنابي أن يقف على الفارق بين النظامين السياسيين. فنظام دولة المشرق تسلطي يؤمن بالتعدد الطبقي ويعتقد في الفارق الاجتماعي، وتدين طوائف الدولة بدين وثني؛ حيث يعبدون القمر. بينما نظام الوطن لا يفرق بين مواطن وآخر على أساس أنهما من أب واحد وأم واحدة. فيحكم الجميع - الحاكم والمحكوم – قانون "الأخوة"؛ إذ "لا فرق بين الحاكم وأقل الخلق شأناً" ... ودين دولة المشرق واقعي محتمل يناسب الناس جميعاً لا يدعى ما لا يستطيع تطبيقه، كما يقول الكاهن. كما أن الرحّالة الشاب قد استوعب بتسليم أن قانون "الأخوة" مجرد زعم لا يمثل الواقع ما دام لا يطبق، حيث لا يوجد له أثر في المعاملة بين الناس. وانعدام "الأثر" جعل القويّ يزداد تسلطاً وظلماً للضعيف، كما جعل العدل مجرد كلمة لا معنى لها. بدليل أن حليمة الطنطاوي - حبه واختياره - قد أُرْغِم على التخلي عنها؛ بسبب القوة الظالمة المستبدة التي تمثلت في رغبة حاجب الوالي.

وإذا كان قنديل قد فزع من ضياع حليمة، وجاء إلى دار المشرق التي ظن أن نظامها لا يقبل تكرار تلك الواقعة – فإنه تعرض لإفزاع ثانٍ حين أحب الفتاة "عروسة" وأنجب منها أربعة. فقد صدر أمر سيادي بطرده من دار المشرق، بعد أن ثبت لدى المسئولين أنه عمد إلى تربية أكبر أبنائه رام، على مبادئ الإسلام الذي لا تعترف به دار المشرق. وتضاعف إحساسه بالظلم حين خصه أمر الطرد وحده دون عروسة وأبنائها الأربعة الذين قررت السلطات احتجازهم؛ ليكونوا ضمن منظومة الدولة التي لا تسمح بتربية أبناء نسائها على الكفر (الذي هو الإسلام من وجهة نظرهم). حتى زوجته عروسه حذرته من أسلوب تربية رام. فقد قالت له ذات يوم :

- إني أنقذ روحه، كما تمنيت أن أنقذ روحك ذات يوم.

---

(1) السابق: ص 46، 47.

فقالت بصرامة :

- لن أسمح لك بهذا أبداً[1].

وقد تعزز فزعه وتأكد قهره حين جابهه الأب برفض يماثل رفض ابنته عروسة، وعندما لاحظ أنه في نظر الجميع مدان يجب إبعاده. يقول قنديل "وخيل لي أن النبأ تسرب إلى الخارج ، رغم تكتمنا له ، وأن نظرات الغضب تحرقني في الطريق. وطاردني القلق حتى قلت لنفسي : "البناء مهدد بالانهيار"[2].

صار قنديل مهيئاً الآن بواقعة "الحرمان" من أسرته وإبعاده عنها، ويبدو أن حدسه قد صدق، وأن ما توقعه قد صار حقيقة؛ وذلك حين جاء للفندق ضابط شرطة،وأفضي إليه بقرار الإبعاد على هذا النحو.وقال الضابط :

- ثبت أنك تحاول تنشئة ابنك الأكبر على الكفر.

فسألته بجزع :

- كيف ثبت هذا؟

- نحن أدرى بواجبنا، اسمع فلم أحضر للمناقشة، صدر أمر السيد بالتفرقة بينك وبين رفيقتك وأبنائها، وأن ترحل عن المشرق مع أول قافلة.

هممت بالكلام، ولكنه قال بغلظة :

- لم أحضر للكلام. أنت محجوز معي حتى يذهبوا بالمرأة والأولاد إلى أبيها. وستظل تحت الحراسة حتى تلحق بالقافلة.

فقلت بضراعة :

- دعني أودعهم ..

فقال بخشونة :

- لقد وقع عليك أخف جزاء فكن شكوراً[3].

---

(1) السابق: ص55.

(2) السابق: ص55.

(3) السابق: ص56.

فهذا الموقف الحواري الجامع لقنديل والشرطي – يكشف عن مدى الظلم الذي لحق به. ولو كان "العدل" مطبقاً في نظام أو أساساً للحكم لما تقرر على يد "الشرطي" إكراه الرحّالة على التفريق والإبعاد على هذا النحو المزري الذي أسال وعيه على هذا النحو "ورجعت إلى حجرتي بعد ساعة – التي تحولت إلى سجن – فوجدتها خالية من الأم والأولاد والحب والأمل. لحظة كئيبة تنداح في أعماق النفس فتنكشف الحياة عن حلم أو وهم"[1].

ويكون من حق الرحالة أن يتذكر ما حلّ به من قبل. ففي ظل هذا النظام الوثني وقع الظلم الفادح الذي لم يكن بمقدرته مقاومته؛ فامتثل للأمر دون احتجاج يذكر. ونفس واقعة المنع والحرمان جرت في ظل النظام الإيماني بدار الإسلام. ولم يستطع قنديل مواجهة حاجب الوالي الذي استولى بالسلطة والتسلط والتخويف على فتاته التي اختارها لتكون زوجته وأم أولاده. فلو كان العدل مرعياً في وطنه لما رحل باحثاً عنه في غير وطنه الذي تبخرت منه؛ بسبب ذلك "مسرات الحياة" كما تبخرت الآن في دار المشرق.!

ولم تكن حاله في "دار الحيرة" التي ارتحل إليها مع قافلة تجارية ببعيدة عن حاله في دار المشرق، بل في دار الإسلام. فقد تلقي تعليمات من سلطة "الحيرة" تتضمن تحذيراً وإنذاراً رغم اللطف الظاهر للعبارة التي استقبلهم بها عند مدخل العاصمة – رجل عسكري مدجج بالسلاح دال على تأهبه للقتال والقتل. قال بلهجة مرحبة - وإن كانت لا تخلو من التهديد - :

- "أهلاً بكم في الحيرة عاصمة دار الحيرة، ستجدون رجال الشرطة في كل مكان؛ فتسألونهم عما تريدون وتتبعون إرشاداتهم بدقة تجعل من رحلتكم ذكرى طيبة لا يشوبها ما ينغص[2]". وقد علق قنديل على هذه العبارة هكذا: "فقلت لنفسي إنه ترحيب وإنذار[3]".

ولكي يؤكد تواصل "الظلم القائم على غياب العدل" في دار الحيرة – عمد قنديل العنابي إلى تنمية ما أدركه من تهديد يمثل مقدمة إلى فقدان العدل الذي يرتحل دائماً بحثاً عنه. ذلك أنه عقد حواراً مع (همام) صاحب الفندق الذي يستضيف الغرباء على هذا النحو: "سألني (همام):

- من أي البلاد؟

---

(1) السابق: ص56.

(2) السابق: ص59.

(3) السابق: ص59.

- دار الإسلام.

فقال محذراً:

- لا يمارس في الحيرة إلا دين الحيرة.

فذكرني بمأساتي، ولكن سألته :

- وما دين الحيرة يا سيد همام؟

- إلهنا هو الملك.

وحياني وانصرف. نفخت الشمعة فأطفأتها وآويت إلى الفراش وأنا أقول لنفسي: الملك بعد القمر، يا له من ضلال، ولكن رويدك، ألا يتصرف الوالي في وطنك كأنه إله؟ استمتع بالرقاد بعد متاعب السفر. ولذ بالنوم من متاعب الحياة كلها"[1].

فقد أراد الكاتب بهذا الحوار أن يكشف عن حقيقة أن غياب العدل من "الحيرة" يرجع إلى فساد العقيدة الدينية. فأهلها يعبدون "الملك" فهو إلههم الوحيد، ولا يعرفون إلهاً غيره؛ وهذا يعنى أن التشريع في الدولة – إن كان ثمة تشريع – مستمد من سلطة الملك، التي لا نتوقع لها أن ترسي العدل، وتجعله سائداً...ولذلك شعر قنديل العنابي بأن الطريق إلى "العدل" هنا مسدود.

وسوف يكون مجرد أمنية ينشدها أغلب القاطنين في الدولة ويحلمون بها. ومن هنا جاء حديثه إلى نفسه يذكرها بمأساته في وطنه الذي ارتحل عنه باحثاً عن "العدل" في أماكن أخرى؛ فلو كان متوافراً في وطنه لما صدر قرار حرمانه من "حليمة" على ذلك النحو الجائر الذي تمثل في رغبة حاجب الوالي ... وكيف لا يحقق الحاجب ما يريد إذا كان الوالي نفسه يتصرف في الوطن "كأنه إله". وما دام قد اتخذ هذه الصفة أو اقترب من اتخاذها فإن المظالم ستنتشر، وسوف يسود القمع لأية محاولة تطالب برفعها عن كاهل العباد؛ ويكون على الرحّالة قنديل العنابي أن يواصل تحسره، فها هو يستشعر بمقدمات "القمع" الذي حال بينه وبين زوجته عروسه وأولاده الثلاثة في دار المشرق.

ويبدو أن استشعاره قد تحول إلى واقع وحقيقة. فما لبث أن عرف أن دار الحيرة تستعد لشن حرب ضد المشرق لتحريرها من سلطة (إله القمر)، ومن استغلال خمسة طغاة يتحكمون في ثروات الدولة. يقول قنديل :

---

(1) السابق: ص 60، 61.

" فتحت نافذة فرأيت في ضوء البكور جيشاً لجباً. فرساناً ورجالة، تتقدم على دقات طبل نحو باب المدينة ... هممت أن أسأل الخادم عن مسيرة الجيش ولكن الحذر أمسكني. وارتديت ملابسي للخروج فوجدت مدخل الفندق مكتظاً بالناس وهو يتحاورون:

- إنها الحرب كما توقع كثيرون.

- ضد المشرق ولا شك.

- لتحرير شعبه من خمسة من الطغاة.

- سيكون تاريخاً جديداً للمشرق تحت حكم إله عادل.

انقبض صدري، وطارت أفكاري لتحوم حول "عروسة" وأبنائها: كيف يكون مصيرهم؟ ليت الرغبة في تحرير أهل المشرق هي ما دفعت إلى الحرب، ولكنه الطمع في المراعي وكنوز السادة الخمسة. وسوف يقع "قهر" شديد لتحويل الناس من عبادة "القمر" لعبادة "الملك". سوف تزهق أرواح، وتهتك أعراض وتتشرد الألوف. ألا يحدث ذلك في حروب تنشب بين أناس على دين واحد يدعو إلى التوحيد والأخوة[1]؟!

يكشف كل من "الحوار المتبادل" ، و"البوح الداخلي" لدى قنديل العنابي عن أن تحرك جيش الحيرة لغزو المشرق ليس ناجماً عن "نية حسنة" أساسها الرغبة في تحريرها من تسلط السادة، بل إن الغزو "يهدف إلى استيلاء دار الحيرة" على مقدرات وثروات وكنوز سادة "المشرق"، التي سبق أن اغتصبوها من الرعية، كما أن هذا الغزو يهدف إلى إحلال دين "الملك" واستبعاد "دين القمر" ... أما إقرار "العدل" الذي يحلم به "قنديل العنابي" فإنه غير وارد لدى غزاة الحيرة، كما أنه لم يكن في حسبان الهيئة الحاكمة في دار المشرق؛ ذلك أن سكانها سوف يخضعون "لقهر شديد" ليتحولوا عن دين القمر الذي أرغموا عليه، وإن بدا أنهم راضون وموافقون عليه، وليس تحولهم إلى الحيرة وهو دين الملك، إلا إكراهًا لهم وإرغامهم على التعبد بالملك؛ فهو إلههم الوحيد الذي درجوا واعتادوا على تنفيذ أوامره وتعاليمه المقدسة.

ولا يمكن للمرء أن يتوقع والحال هذه – كما شعر قنديل – أن يحل العدل الذي يسوي بين الناس في المعاملة وتوزيع الثروات، بل المتوقع هو المزيد من "القهر" والظلم. ومع غياب العدل تنشب الحروب ويقع العدوان

---

(1) السابق: ص 61 ، 62.

وتحل الكوارث ... ويكمن الحل كما رأى قنديل العنابي في الدين المنزّل، الدين الحقيقي الذي نشأ عليه في الوطن الإسلامي، وإن كان لم يسلم من الحروب المفاجئة والهجمات المباغتة، التي تشنها بين الحين والآخر بعض دوله على بعض دوله الأخرى رغم أن شعوبها تدين بدين واحد، يدعو إلى التوحيد والأخوة. وهذه موازنة أدارها قنديل في نفسه متعجباً، وهو يتأمل أحول المتحاربين في دارى المشرق والحيرة.

وقد قادته هذه "الموازنة" إلى تعزيز اعتقاده بأن "سيئات رحلته حتى الآن لها نظير في بلاده الحزينة التي عرف عنها أنها "بلاد الوحي"، على نحو ما يظهر من الحوار الذي عقده الكاتب مع قنديل وصاحب القافلة.

يقول قنديل سارداً مشاهداته في العاصمة، حيث تحرك بين أحياء الأغنياء بقصورها الفخمة وأحياء الفقراء بأكواخها وخرائبها ومناخها الكئيب وأناسها التعساء – يقول: "وقلت في ذلك لصاحب القافلة :

- يزعمون أن الحرب قامت من أجل تحرير العبيد في المشرق. هلا حرروا عبيد الحيرة؟

فتساءل الرجل هامساً :

- وماذا تقول في بلادنا بلاد الوحي؟!

فقلت بحزن :

- ما من سيئة عثرت بها في رحلتي إلا وذكرتْني ببلادي الحزينة ..

فقال الرجل وهو يمضى عنى :

- عليك أن تشاهد قصر الملك الإله"[1].

فقال أفاد "الحوار" أن رسوخ الفارق الطبقي حقيقة واقعة، وأن "حرب تحرير العبيد" و "إعادة توزيع الثروة" مجرد دعاوى زائفة لها مثيل في بلاد الإسلام. فإذا وجهنا مآخذنا على دار الحيرة وهى وثنية، فالأولى أن نوجه نفس المآخذ على دار الإسلام؛ لأنها "بلاد الوحي" والأديان المجتمعة على التوحيد أو وحدانية الله تعالى ... ويمكن لقنديل العنابي أمام هذا التساؤل النفسي أن يزداد اقتناعه بفداحة الظلم في وطنه لضياع معالم العدل في منظومة الدولة التي تدين بدين التوحيد.

---

(1) السابق: ص64.

ولكي يعزز الكاتب من اقتناع قنديل العنابي جعله يوازن بين حياة قصر الملك الإله في دار الحيرة، وقصر الوالي في وطنه الذي غادره بحثاً عن العدالة المثالية في بلاد أخرى؛ فأثبتت الموازنة تماثلهما في الفحامة والأبهة، فحينما قال له صاحب القافلة :

- عليك أن تشاهد قصر الملك الإله – قال الرحالة الشاب: "ولم يغب عنى ذلك". وقد وجدته قائماً منيعاً شامخاً في عزلة وسط فراغ مسوّر بالنخيل والحراس. إنه مثل قصر الوالي في وطني".

كما جعله يوازن بين جبروت الحكم الوثني هنا والحكم الإسلامي في وطنه هناك على هذا النحو : "وشد بصري حقل من الأعمدة مسوّر بسياج من حديد فاقتربت منه حتى رأيت رءوسًا آدمية منفصلة عن أجسادها تتدلى من هامات الأعمدة. ارتعدت لهول المنظر ولا أنكر أنني رأيت صورة مصغرة منه في صباي في وطني، إنهم يعرضون الرءوس للزجر والتأديب والعظة".

لقد تمخض عن هاتين الموازيتين "شعور مضاعف" بأن عملية قتل المعارضين للنظم الظالمة – سهلة ميسرة هنا وهناك، وسوف يظل قطع الرءوس وفصلها عن أجسادها ما دام العدل غائباً. فلو كان ثمة من محاكمة نزيهة لما حل القتل والتنكيل بأصحاب هذه – وتلك – الرءوس، ولن يملك قنديل العنابي إلا تسجيل رأيه هنا في دار الحيرة – كما سجله في وطنه – وهو أنه يؤمن بأن أصحاب الرءوس المقطوعة "شهداء العدل والحرية ... قياساً على ما يقع عادةً في بلاد الوحي"[1] ، كما أنه يؤمن بأن هذين المشهدين دليل على أنه يعيش في "عالم غريب حافل بالجنون"[2]؛ ولذلك قدر أن الخروج من هذا العالم رهن بحدوث "معجزة" توصله إلى "الدواء الشافي في دار الجبل[3]"، لا سيما أن الظلم قد تواصل في وقعه حيث تعرض للتفريق بينه وبين "عروسة" زوجته التي عثر عليها ... ولكن حكيم دار الحيرة (ديزنج) آثر أن يحرزها رغم علمه بأنها كانت زوجته. وقد حذره (هام) صاحب الفندق من الرفض؛ لأن الحكيم من المقربين من الإله. ولأنه رفض تنفيذ طلب الحكيم – صدر قرار باعتقاله ومحاكمته على تهمة "السخرية من دين دار الحيرة، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة مع مصادرة أمواله وما يملك" وبذلك دخلت "عروسة" في المصادرة ...

---

(1) السابق: ص65.

(2) السابق: ص65.

(3) السابق: ص65.

وسوف يخضع قنديل للحكم الظالم في "السجن" . حقاً ناله بأس شديد، ولكنه كان مزوداً بأمل لا يمكن نسيانه وهو "الوصول إلى دار الجبل"، التي وصفها الوصافون – رغم عدم زيارتهم لها – بأنها "وطن الكمال"، كما قال بذلك سجين عجوز جاوز الثمانين التقى به في سجنه الأبدي[1].

ولم يستمر سجنه؛ فقد تبدلت الحال حين انقلب قائد الجيش على الملك الإله وقتله ونكل برجاله، ونصب نفسه ملكاً على دار الحيرة؛ ومن ثم أمر بالإفراج عن السجناء وتسليمه أمواله المصادرة. وعلى الرغم من اعتذار مدير مركز الغرباء له بقوله: "نحن آسفون لما حل به من ظلم يتنافى مع مبادئ وقوانين دار الحيرة" - فإنه آثر الرحيل بحثاً عن زوجته عروسة وأبنائه منها، وربما فكر في العودة إلى وطنه على نحو ما تساءل عقب تحرره من السجن، وذلك بقوله : "هل أرجع إلى وطني قانعاً من الغنيمة بالإياب، أو أواصل الرحلة والاستطلاع ودق أبواب المصير؟"[2].

وقد آثر الرحيل إلى "دار الحلبة" وهى الدار الثالثة التي هي في طريق دار الجبل؛ لا سيما أنه لم يحب العودة إلى وطنه. يقول: "وكرهت العودة إلى الوطن على هذه الحال من الجدب والخيبة، وحدثني قلبي بأنني في وطني معدود من الأموات، لا أحد ينتظرني أو يهمه مرجعي ... كلا لن أرجع. لن ألتفت إلى الوراء. بدأت رحّالة، سأظل رحّالة، وفي طريق الرحالة أسير. إنه قرار وقدر، خيال وفعل. بداية ونهاية. فإلى دار الحلبة وما بعدها حتى دار الجبل ، ترى كيف تتبدين اليوم يا عروسة وأنت بنت أربعين؟[3]".

فمن البين أن قراره بمواصلة الرحلة ناشيء عن رغبته في نظام دار الحيرة؛ فربما يصدر قرار اعتقاله لسبب أو لآخر رغم الإفراج عنه من عقوبة العشرين عاماً، حقاً إن الحكم الآن بيد ملك جديد عفا عن السجناء وفتح السجون. لكن من يضمن عدم إنزال الظلم وعودة القهر، وبخاصة أن الملك الحالي حكم بمؤامرة انقلابية. فربما عاد إلى تطبيق سياسة سلفه، وهى "قمع" الأصوات المطالبة بالحرية والعدل.

وقد اكتشف قنديل العنابي أن دار الحلبة تتصف "بحرية واسعة"، وقد توقع أن يقترن العدل بهذه الحرية. ولكن ما لبث أن خاب مسعاه حين استمع إلى

---

(1) السابق: ص79.

(2) السابق: ص85.

(3) السابق: ص 85، 86.

الشيخ السبكي الذي أفاده بأن "الدولة تسمح بالحرية على أوسع نطاق" ولا شأن لها بالأديان[1]. فليس لها دين تلتزم به برغم تعدد الأديان بها، فكل فرد حر في اختيار ديانته، ولا يتدخل أحد في اختياره؛ لأن "الحرية" تسود "الحلبة"، يقول الشيخ السبكي:

- الحلبة دار الحرية، تتمثل فيها جميع الديانات، فيها مسلمون، ويهود، ومسيحيون، وبوذيون، بل فيها ملحدون ووثنيون[2].

وينقد قنديل العنابي حرية دار الحلبة التي لا تقف أمام المطالبة بشرعية العلاقات الشاذة، يقول العنابي: "ويقول الشيخ معلقاً :

- الحرية هي القيمة المقدسة المُسلّم بها عند الجميع!.

فقلت محتجاً :

- هذه حرية جاوزت الحدود الإسلامية.

- لكنها مقدسة أيضاً في إسلام الحلبة.

فقلت وأنا أكابد خيبة أمل:

- لو بعث نبينا اليوم لأنكر هذا الجانب في إسلامكم .

فتساءل بدوره :

- ولو بعث عليه الصلاة والسلام أما كان ينكر إسلامكم كله؟!

آه .. صدق الرجل وآذاني بتساؤلاته. وقال الإمام (الشيخ) :

- طوفت بديار الإسلام كثيراً!

فقلت باسمًا:

- من أجل ذلك قمت برحلتي يا شيخ حمادة. أردت أن أرى وطني من بعيد، وأن أراه على ضوء بقية الديار. لعلى أستطيع أن أقول له كلمة نافعة ...[3].

---

(1) السابق: ص94.

(2) السابق: ص93.

(3) السابق: ص95.

لقد جاء رد الشيخ السبكي في هذا الحوار موجعاً لقلب العنابي؛ ذلك أنه قد بدا على معرفة بواقع "الإسلام" في وطنه الذي رحل عنه من أجل المعرفة. فالنظام الإسلامي في الوطن لا يوافق عليه أي شخص غيور يتمنى للإسلام الازدهار؛ ولذلك صدق العنابي على قول الرجل حين أخبره أن النبي (ρ) لو بعث "سينكر إسلام أهل الوطن جميعاً"؛ لأنهم لا يعملون للارتقاء به. وهو الارتقاء الذي لا يتحقق إلا بمقاومة "الاستبداد" والقضاء على "الفقر" والتحرر من "الجهل"، فلو اتخذ الحكم في ديار الإسلام منهج حكم دار الحلبة لحقق له ذلك "الارتقاء" المنشود. يقول الحكيم "مرهم" مؤكداً على قيمة "الحرية" التي آمن بها مفكرو دار الحلبة قديماً؛ حتى راحت تتسلسل جيلاً بعد جيل[1] :

- لا فضل في ذلك لإله. آمن مفكرنا الأول بأن هدف الحياة هو "الحرية".

ويواصل الحديث الحكيم مرهم بعد أن أدرك أن كلماته "قد استقرت في نفس قنديل":

- بذلك اعتبر كل تحرر خيراً، وكل قيد شراً، أنشأنا نظاماً للحكم يحررنا من الاستبداد، وقدسنا العمل ليحررنا من الفقر، وأبدعنا العلم ليحررنا من الجهل، وهكذا ... وهكذا ...[2].

يتضح من كلام مرهم الحكيم أنه لا يعنيه اقتران الحرية بالعدل المنشود؛ ففي رأيه أن "الحرية" هي الهدف الأساسي ولا شيء سواها، وهي "مسئولية لا يستطيع الاضطلاع بها إلا القادرون، وليس كل من ينتمي إلى الحلبة أهلاً لهذا الانتماء، لا مكان للعجزة بيننا"[3].

وهذا النظام يعنى نفى "الرحمة" – المرتبطة بالعجز – من سياسة الدولة؛ ولذلك يزداد الفقر ويكثر الفقراء، كما يعنى التخفف من تطبيق مبدأ "العدل" في الدولة الذي يجعل جميع الناس سواء أمام القانون، فليس في نظام (دار الحلبة) من يستحق الرحمة، والعدالة اللتين يتوافقان مع العجزة وغير القادرين على العمل ... فهو نظام مرتبط باعتقاد الناس وإيمانهم بإله ارتضوه ورسول اتفقوا عليه. فهو نظام "إلهه العقل ورسوله الحرية"[4]. ولذلك استسلم قنديل العنابي لفكرة أن "العدل" في هذه الدار غير موجود، وأن ما يترتب على

---

(1) السابق: ص105.

(2) السابق: ص105.

(3) السابق: ص106.

(4) السابق: ص107.

غيابه من "سقوط" وانهيار هو المصير المتوقع. وما عليه إلا مواصلة البحث عنه في الدار التالية (وهي الأمان)، لاسيما أن غياب "العدل" أدخل دار الحلبة في حرب طاحنة ضد دار المشرق ، وسوف يدخل في حرب متوقعة ضد "دار الأمان"..!

توقع قنديل العنابي أن يعثر في (الأمان) على ما افتقده في الدار السابقة. نشأ هذا التوقع منذ لحظة دخوله المدينة، عاصمة دار الأمان، حيث تضمن ترحيب الحارس بالقافلة التجارية إشارةً إلى توافر "العدالة الشاملة" في الدولة. يقول قنديل العنابي: "واصلنا السير في جو لطيف حتى تراءى لنا السور العظيم على ضوء المشاعل. وقفنا أمام البوابة. تقدم منا رجل بين حاملي المشاعل، وصاح بصوت غليظ :

-أهلاً بكم في الأمان عاصمة دار الأمان، أهلاً بكم في دار العدالة الشاملة"[1].

ولكن هذا التوقع ما لبث أن هدده بالزوال النظامُ المتبع مع الرحالة والغرباء، فقد خصص النظام لقنديل مرافقاً طوال مدة إقامته يدعى "فلوكه"، وهو رجل في الستين من عمره، مكلف بمرافقة قنديل وملازمته في جميع شئونه؛ حيث شاركه في غرفة الفندق وجاوره في الطريق، ولازمه عند دخوله "الحمام". يقول لفلوكه حين ضمتهما غرفة بسريرين:

- إذن لن أحظى بالحرية هنا إلا في دورة المياه.

فقال ببرود :

- ولا هذه أيضاً.

- أتعنى ما تقوله حقاً؟!

- لا وقت لدينا للهذر.

فقطت هاتفاً :

- الأفضل أن ألغى الرحلة.

- لن تجد قافلة قبل مرور عشرة أيام.

وراح يغير ملابسه ويرتدي جلبات النوم، ومضى نحو سريره وهو يقول:

---

(1) السابق: ص124.

- كل شيء هنا جديد، فهو غير مألوف، فتحرر من أسر العادات السيئة"[1].

تدل هذه المحاورة على قوة نظام دار الأمان، وتحكمه في "حرية" المواطن والغريب على السواء رغم شعار "العدالة الشاملة"، الذي يلقن لهما، ويقترن بهذا التحكم قوة "القمع" التي تطبق بين آونة وأخرى، وهذا يؤدي بالضرورة إلى ممارسة "الظلم" ممارسة لا تفيد معها أي دعوة لتطبيق "العدالة" أو مقاومة ما ينتج عن غيابها من تصرف إجباري، وتعسف إكراهي؛ ولذلك شعر قنديل العنابي بمعاناة وإحساس بالعجز، ورأى أن يده مغلولة، الآن على الأقل، وهذا الإحساس نذير بأن العدالة الشاملة بعيدة عن التطبيق.

يقول مصوراً عجزه ورضاه بالأمر الواقع الآن على الأقل: "انهزمت أمام الواقع ... وهرب منى النوم طويلاً من شدة الانفعال حتى غلبني النوم"[2]. ويبدو أن فلوكه الملازم له كظله قد أدرك تبرمه وضيقه بنظام الدولة لا سيما حين قارنه أمامه بنظام دار الحلبة فيما يخص بحركة الطرق في كل منهما. فطرق "الحلبة" تموج بالنشاط ولكن شوارعها تكتظ دائماً بالناس، على حين أن طرق (الأمان) تتصف "بالخلاء المخيف" فلا أثر فيها لإنسان، ولا أثر للحياة بها، وهذا ما جعله يصيح في فلوكه:

- أين الناس؟!

ودفع السؤال فلوكه إلى أن يجيبه بقوله:

- الجميع يعملون لا يوجد عاطل، لا توجد امرأة غير عاملة، أما العجائز والأطفال فتراهم في حدائقهم.

وحين أبدى قنديل إحساسه بالدهشة قال فلوكه:

- نظامنا لا شبيه له بين النظم، كل فرد يعد لعمل ثم يعمل، وكل فرد ينال أجره المناسب، الدار الوحيدة التي لا تعرف الأغنياء والفقراء. هنا العدل الذي لم تستطع دار أخرى أن تحقق جزءاً منه"[3].

حقاً إن "العدالة" على نحو ما تظهره عبارات "فلوكه" – مطبقة تطبيقاً حرفياً، فالكل سواء أمام النظام، والجميع يعملون ولا يوجد أحد بدون عمل،

---

(1) السابق: ص125.

(2) السابق: ص127.

(3) السابق: ص 128، 129.

ولكن "الحرية" التي تقترن بالعدل في جميع الأنظمة المتحضرة – ليست واردة في نظام دار الأمان. "الحرية" هنا مراقبة، أي أن العدل هنا عدل منقوص إذ كيف نتصور عدالة بلا إحساس بالحرية. يتناول قنديل مع فلوكه حرية الإنسان المفقودة في هذه الدار فيرد فلوكه:

- القانون هنا مقدس ... انظر إلى الطبيعة أساسها القانون والنظام لا الحرية.

يقول قنديل :

- ولكن الإنسان من دون الكائنات يتطلع دائماً إلى الحرية.
- إنه صوت الشهوة والوهم. لقد وجدنا أن الإنسان لا يطمئن قلبه إلا بالعدل؛ فجعلنا من العدل أساس النظام، ووضعنا الحرية تحت المراقبة.
- أهذا ما يأمر به دينكم؟
- نحن نعبد الأرض باعتبارها خالق الإنسان ومدخر احتياجاته"[1].

لم يقنع قنديل بما سمع؛ لأنه يعتقد باقتران العدل بالحرية. هذه حقيقة تؤرقه دائماً. ففي وطنه لم يكن راضياً عما يراه من قمع للحريات. ولم يصدق ما يزعمه الحكام من أن "العدل" معادل للنظام؛ ومن ثم جاءت رحلته إلى الديار المتعددة، وفي ذاكرته أن التاريخ الإسلامي حفل بالاستبداد وقمع الحريات في أحيان كثيرة؛ أفصحت عن حدوث مآسٍ دموية، وكم لاحظ أن الحاكم في دار الإسلام "لا يقل استبداداً عن حاكم الأمان وهو يمارس انحرافاته علانية. والدين نفسه تهرّأ بالخرافات والأباطيل، أما الأمة فقد افترسها الجهل والفقر والمرض"[2].

وقد صدق إحساس قنديل العنابي بضرورة اقتران العدل بالحرية حين شاهد بنفسه في الاحتفال بعيد النصر شلة من الفرسان شاهرة رماحها، وقد غرست في أسنة الرماح رءوس آدمية منفصلة عن أجسادها"[3]. وقد أفاد فلوكه أن أصحاب هذه الرءوس خونة متمردون؛ لأنهم خالفوا النظام حيث تحدثوا في شئون غير شئونهم: "نظامنا يطالبنا بألا يتدخل إنسان فيما لا يعنيه، وأن يركز

---

(1) السابق: ص135.

(2) السابق: ص137.

(3) السابق: ص 140 ، 141.

كل فرد على شئونه؛ فالمهندس لا يجوز أن يثرثر في الطب، والعامل لا يجوز أن يخوض في شئون الفلاح. والجميع لا شأن لهم بالسياسة الداخلية أو الخارجية، وقد تمرد على ذلك فجزاؤه ما رأيت"[1].

لقد تأكد إحساسه الصادق وتعزز بمشاهده، وأيقن أن العدل هنا منقوص – كما هو منقوص في الدور الأخرى، وفي وطنه ودعاه هذا اليقين إلى الإحساس بخيبة مسعاه وبتبدد إعجابه بنظام هذه الدار، فكيف يكون الإعدام هو مصير من يطالب بالحرية الفردية وينشدها؟!

يقول قنديل: "أدركت أن الحرية الفردية عقوبتها الإعدام في هذه الدار، واعترتني لذلك كآبة شديدة[2]، ويكون عليه أن يرتحل عن "الأمان" بحثاً عن العدالة الكاملة المقترنة بالحرية في مكان آخر.

لم يكن رحيل قنديل إلى دار الغروب إلا تلبية لحاجته الشديدة، ورغبته العارمة في الوقوف على تلك "العدالة المقترنة بالحرية" التي لا يكف عن نشدانها، منذ أن كان في وطنه المُفارَق منذ ربع قرن من الزمان. فدار الغروب هي المعبر إلى الدار المنشودة التي لم يَعُد منها أحد زارها ليخبرنا عن حقيقتها، ويقدم للآخرين صورة لما يجري فيها . إنها مبهرة كما حدّثه عنها - منذ سنوات بعيدة - الشيخ مغاغة الجبيلي معلمه الأول . يتذكر الآن كلامه في الحوار الذي جمعهما ذات يوم عن رحلاته السابقة إلى الدور البعيدة عن الوطن، وكيف أنه لم يبلغ أهم " دار" منها وهي دار الجبل. قال الشيخ مجيبًا عن سؤال القنديل:

- " ظروف الحياة والأسرة أنستني أهم هدف من الرحلة وهو زيارة دار الجبل.

يقول قنديل: فسألته بشغف:

- وما خطورة دار الجبل؟

فقال متنهدًا:

- نسمع عنها الكثير ، كأنها معجزة البلاد ، وكأنها الكمال الذي ليس بعده كمال.

- لا شك أن كثيرين من الرحالة قد كتبوا عنها.

---

(1) السابق: 141.

(2) السابق: 141.

فقال بنبرة لم تخل من أسى:

- لم أصادف في حياتي آدميًا ممن زاروها ، ولا وجدت كتابًا عنها أو مخطوطًا..

فقلت بضيق:

- إنه أمر عجيب لا يصدق..

فقال بكآبة:

- إنها سر مغلق..

وكأي سر مغلق شدني إلى حافته، وغاص بي في ظلماته ، وضرم النار في خيالي، وكلما ساءني قول أو فعل رفّت روحي حول دار الجبل[1] ".

ليس غريبًا إذن أن يرحل قنديل إلى "دار الغروب" التي سينفذ منها إلى الدار المنشودة، ولا سيما أن دار الغروب تتسم بطابع فريد أدهشه، وعمد إلى الحديث عنها بعد أن قطع الصحراء مع القافلة إليها. قال: " وفي هزيع من الليل بشرنا صوت بأننا بلغنا حدود دار الغروب . وكان القمر نصفًا، والجو مفضضًا، ولكني لم أر سورًا ولا مندوب الجمرك. وقال صاحب القافلة ضاحكًا:

- هذه دار بلا حراسة، فادخلوها بسلام آمنين..

فسألته:

- وكيف أعرف السبيل إلى فندق الغرباء؟

فقال وهو يواصل الضحك:

- سينبئك نور النهار بما تسأل عنه..

وانتظرت شوقًا حتى أشرقت الشمس. لعلها أجمل شمس عرفتها في حياتي. فهي نور بلا حرارة أو أذى، يزفها نسيم عليل ورائحة طيبة"[2].

ففي هذا الحديث عن عاصمة المدينة ظهر ارتياحه النفسي لمظاهرها الطبيعية، وإحساسه بالاطمئنان والسلام؛ وبخاصة أنه قد شعر "بحرية" في الحركة؛ إذ الدار - كما وصفها صاحب القافلة - "بلا حراسة "، وأن الأمن متوافر فيها كما اتضح من قوله: "فادخلوها بسلام آمنين".

---

(1) السابق: ص 10، 11.

(2) السابق: ص 146.

وقد تعزز هذا الإحساس بما لاحظه في اليوم التالي؛ حيث وجد أهلها لا يتكلمون مع أحد ... كما وجد تجار القافلة "يملئون أجولتهم بالفاكهة بلا حساب ولا رقيب "، وعرف أن أرض هذه الدار التي خلت طرقها من البشر "جنة الغائبين"؛ فهو لم ير جماعات من أهل المدينة أو فرد أو أفراد منهم تراقب الثمار والفاكهة. ولذلك جاء قول صاحب القافلة: "خيراتها مبذولة بلا حساب".

ولأن إصراره على "الوصول إلى كامل المعرفة" ما زال متصلاً حيث يملأ الحماس قلبه وعقله؛ فإنه عمد إلى السؤال عن حقيقة غرابة الحياة في دار الغروب. وجاءه الجواب من شيخ الغابة وحكيمها الذي يجتمع إليه سكان المدينة؛ ليعدهم إلى الرحلة إلى (دار الجبل). والإعداد يتعين في "تعلم الغناء أو الترتيل الخاص"، "والتدريب على التركيز الذهني" والكشف عن الكوامن الخفية والقدرات غير المنظورة. وصدق القول والفعل"[1]. يقول الحكيم الشيخ عن مريديه:

- حياتهم هنا موافقة للحق ومفارقة للخَلْق .

ويقول عنهم أيضا:

- جميعهم مهاجرون، من شتى الأنحاء يجيئون إعراضًا عن الهواء الفاسد؛ وليعيدوا أنفسهم للرحلة إلى دار الجبل"[2] .

ويعلق قنديل بقوله : "فدهمتني حيرة شديدة، وسألته:

- وكيف تعدهم للرحلة ؟

فقال بوضوح:

- كل شيء يتوقف عليهم. إني أدربهم بالغناء لتمهيد الطريق، ولكن عليهم أن يستخرجوا من ذواتهم القوى الكامنة فيها.

- فسألته بضراعة:

- ما معنى أن أستخرج من ذاتي القوى الكامنة فيها؟

- معناه أن في كل إنسان كنوزًا مطمورة عليه أن يكتشفها، خاصة إذا أراد أن يزور دار الجبل.

- وما العلاقة بين هذا ودار الجبل؟

---

(1) السابق: ص 148، 149، 150، 151.

(2) السابق: ص 150.

فصمت مليًا، ثم قال:

- إنهم هناك يعتمدون في حياتهم على هذه الكنوز، فلا يستعملون الحواس ولا الأطراف" [1] .

إن محاولة قنديل "الوقوف على غرابة الحياة في دار الغروب" سببها رغبته في التوصل إلى " العدل المقرون بالحرية " في هذه الدار. إنه حتى هذه اللحظة لم يصدمه "ظلم" أو"طغيان" أو"قهر"؛ فالجميع هنا - كما يقول الحكيم - غير مجبرين على شيء، وليسوا مكرهين على سلوك لا يعتقدون فيه. وهم أتوا إلى هذا المكان أو ارتحلوا إليه بعد أن حاولوا مقاومة الظلم والعسف والطغيان في أوطانهم الأصلية. أي أنهم أدوا واجبهم على نحو كامل؛ ولذلك فإنهم مؤهلون إلى الرحلة إلى دار الجبل والبقاء فيها.

وإذا كان هؤلاء يتأهلون لدار الجبل فإن قنديل العنابي قد افتقد المسوغ لبلوغ هذه الدار المنشودة، حين غادر وطنه الأصلي دون أن يؤدي الواجب نحوه كما فعل هؤلاء الذين يتأهلون للرحلة. يقول الحكيم: " إنك من الهاربين، تعللت بالرحلة فرارًا من الواجب. لم يهاجر أحد إلى هنا إلا بعد أن أدى واجبه. ومنهم من خسر زهرة عمره في السجن في سبيل الجهاد لا بسبب امرأة.

فهتفت جزعًا:

- كنت فردًا حيال طغيان شامل.

- هذا عذر الخائر!" [2] .

ويعني افتقاده مسوغ الرحلة أنه رضي في وطنه الأصلي بوقوع الظلم فلم يقاومه، وقبل بالطغيان فلم يثر على الطغاة، وأغمض عينيه عن صور القهر الذي أصابه هو شخصيًا حين أرغم - بدون وجه حق - على اغتصاب حقه المشروع بحرمانه ممن أحب واختارها لتكون زوجة له من ثم يكون عليه أن يقضي بعض الوقت – هنا - في دار الغروب؛ للتأهيل والإعداد لتلك الدار المنشودة، التي يكتشف أهلها بالعقل والقوى الخفية "الحقائق ... ويحققون العدل والحرية والنقاء الشامل"[3] .

---

(1) السابق: ص 151، 152.

(2) السابق: ص 153.

(3) السابق: ص 155.

فعليه أن يخضع ذاته للتجربة الفريدة، ويتأمل ماضيه بوطنه في ضوء حاضره فيما بين دار الغروب ودار الجبل. يقول قنديل: " وأرجع إلى عزلتي وأنا أتخيل اليوم الذي أسلط فيه قواي الكامنة على وطني؛ لأنشئه من جديد مقاما صالحا لقوم صالحين"[1].

ولكن إحساسه بالأمان ما لبث أن تبدد؛ فتبدد تركيزه في الرحلة المنتظرة. فها هو "ظلم مقرون بالقهر" يقع عليه، وعلى كافة دار الغروب؛ حيث عمدت جيوش دار الأمان إلى احتلال الدولة. بدعوى قطع الطريق على دار الحلبة التي تفكر في احتلال دار الغروب؛ لتطوق دار الأمان " فقد اقتضت دواعي الأمن أن نحتل أرضكم"[2]، كما قال قائد الجيوش التي احتاجت الدولة دون سابق إنذار. وقد وقع السكان في مأذق شديد. فقد خيرهم القائد العسكري بالرحيل إلى "دار الجبل" أو البقاء. وتكمن الشدة في أن "الرحيل" الآن إلى دار الجبل غير مناسب؛ لأن فترة الإعداد النهائي للسكان - ومنهم قنديل العنابي - لم تكتمل بعد ، ويعني رحيلهم إلى دار الجبل "النقص" في التأهيل، وهذا "النقص" سيجعل نظام دار الجبل يعاملهم مثل "الحيوان الأعجم"[3]، كما سبق أن نبه إلى ذلك الحكيم الشيخ. والرضا "بالبقاء" معناه أنهم سوف يكونون أسرى حرب؛ حيث قال القائد العسكري بحزم: "من يعثر عليه منكم هاهنا بعد قيام القافلة سيعتبر أسير حرب" [4] .

ولن يكون هناك مفر من الرحيل إلى "دار الجبل" رغم نقص التأهيل المرجو؛ إذ اختار المهاجرون الهجرة إلى دار الجبل رغم وضوح المصير ... وهو أنهم سيكونون أقل مرتبة ممن اكتمل تأهيلهم. ولم يكن أمام قنديل العنابي إلا الرضوخ لهذا الاختيار القسْري ... فلا يمكن له مجاراة حياة يسودها القهر في ظل الاحتلال، وهو الباحث دائمًا عن العدل المقرون بالحرية - هاهو قد اكتسب خبرة من هذه الدار سوف تكون في ذاكرته، حين يعود إلى أرض الوطن الذي غادره منذ زمن بعيد؛ ليرفعه من وهدته، وليعينه في مسيرته، وليقوي من عزيمته، وهو يواجه القهر، ويصارع الظلم حتى يتم له إقرار "العدل" المنشود.

---

(1) السابق: 155، 156.

(2) السابق: ص157.

(3) السابق: ص151.

(4) السابق: ص 158.

ويبدو أن غاية "قنديل" من مغادرة وطنه قد تحققت؛ فعلى المستوى المادي الملموس بهره جمال "دار الجبل وروعتها "؛ فعلى سطح الجبل الأخضر " قامت الدار عالية مترامية هائلة القباب. والمباني تنطق بالعظمة والسمو"[1]، وقد أثّرت مشاهدها ومعالمها في نفس قنديل تأثيرًا عميقًا بدا في قوله: "نظرت صوبها بذهول وافتتان. لم تعد حلمًا ولكنها حقيقة. وحقيقة قريبة"[2]. فهي كما وصفها بعض من قابل القافلة بأنها "دار الكمال". لا سيما أنه رأى أعلى الجبل "يعلو على السحب ويتحدى الأشواق"[3].

وقد أوصلته هذه المظاهر الجمالية إلى الإحساس بالأمان الكامل، وإلى اليقين بتحقق العدل المنشود المقترن بالحرية الباعثة للأمل الدافعة إلى التفاؤل؛ ولذلك آثر قنديل البقاء، ولم يعد يفكر فيما خلّف وراءه من زوجة وأبناء. وكيف يفكر في غير اللحظة الفريدة الممتدة بلا نهاية. ولكنه لن ينسى أن يُشْهِد وطنه على ما رأى وشاهد وما عرف في هذه الدار، التي لا يصل إليها إلا أصحاب القدرات الخفية والإرادات الصلبة، التي لم تفرط في واجب، ولم تقصر في عمل مهما قل شأنه، فلم يكن مستغربًا أن ينهى قنديل العنابي روايته، أو مخطوطه على هذا النحو: "فكرت في ذاتي وفيمن خلّفت ورائي، وفيما قد يصادفني من أسباب تَحُول دون عودتي. فكرت في ذلك؛ فخطر لي خاطر، وهو أن أعهد بدفتر رحلتي إلى صاحب القافلة ليسلمه إلى أمي أو إلى أمين دار الحكمة؛ ففيه من المشاهد ما يستحق أن يعرف " بل به لمحات عن دار الجبل نفسها تبدد بعض ما يخيم عليها من ظلمات، وتحرك الخيال لتصور ما لم يعرف عنها بعد ... وتأهبت للمعجزة الأخيرة بعزيمة لا تقهر"[4] .

ولقد أثار طائفة من الأسئلة عن مصير قنديل - الذي سلّم مخطوطه إلى صاحب القافلة -: هل ظل مقيمًا في دار الجبل، أم عاد إلى وطنه؟ هل واصل الرحلة إلى دور أخرى باحثًا عن معرفة جديدة يتزود بها للعمل المثمر المفيد في أي مكان يرتحل إليه؟

---

(1) السابق: ص160.

(2) السابق: ص160.

(3) السابق: ص160.

(4) السابق: ص 161 ،162

فقد آمن واعتقد وتدرّب على ضرورة أداء الواجب الذي يجعله قادرًا على الاحتفاظ بقدراته الخفية الخلاقة التي تيسر له الطريق أثناء ترحاله هنا وهناك من أجل إقرار العدل المقترن بالحرية.